قيود رغم الحرية



قد نترك ديارنا وننتقل إلى بلاد تتسع فيها فرص العمل والتعلم، ثم نواصل حياتنا بالأفكار والمخاوف نفسها التي حملناها معنا. يتغير المكان، وتبقى في داخلنا حدود لم نحاول تجاوزها، وربما نقلناها إلى أبنائنا دون أن نشعر.

بعض هذه الحدود صنعته تجارب صعبة، وبعضها ورثناه من بيئتنا وتربيتنا. وقد تكون له أسبابه يومًا، لكن الظروف تتغير، وما كان متعذرًا في مكان قد يصبح متاحًا في مكان آخر. المشكلة أن نحكم على الفرصة الجديدة بتجربة قديمة، فنغلق الباب قبل أن نعرف ما وراءه.

قابلت شابًا في العشرين من عمره، انتقل مع أسرته إلى بلد الهجرة، وكان يشكو سيطرة أبيه ورغبته في أن يخرج نسخة منه. أراد الشاب أن يبدأ عملًا مستقلًا، لكنه كان يخشى الخروج عن المسار الذي رسمه له والده.

وحين بدأ عمله، وخاض التجربة، استطاع أن يؤسس شركة ويحقق دخلًا جيدًا، ثم تعددت مصادر دخله. وكان لنجاحه وقع طيب على أبيه، الذي أخذ يشيد به ويفتخر بإنجازاته بعدما كان متخوفًا من اختياره.

لا أعرف ماذا كان سيحدث لو أخفقت تجربته الأولى، لكن نجاحه كشف له ولأبيه أن الطريق الذي اعتاداه لم يكن الطريق الوحيد الممكن. وهذا ما نحتاج إلى الانتباه إليه حين ننصح أبناءنا؛ فقد نمنعهم من فرصة مناسبة لهم لأننا لا نعرفها، أو لأننا نخشى عليهم ما لم نجربه بأنفسنا.

وفي المقابل، عرفت رجلًا صاحب خبرة طويلة، قضى سنواته بين المؤسسات والشركات. تحدثت معه عن الاستفادة من خبرته في عمل يخصه، أو نشاط إضافي يستعد به لما بعد الوظيفة، لكنه كان مطمئنًا إلى مكانه، ويظن أن أصحاب العمل لن يستغنوا عنه.

ثم تقدم به العمر، وخرج إلى المعاش، وتراجعت رغبة المؤسسات في الاستعانة به. وجد نفسه محتاجًا إلى بدائل كان يستطيع أن يبدأ إعدادها قبل ذلك بسنوات.

لم يكن اختياره الوظيفة خطأ، وإنما اطمئنانه إلى دوامها دون استعداد لما بعدها. فالوظيفة قد توفر لصاحبها حياة كريمة وفرصة للإنجاز، والعمل الخاص قد ينجح وقد يخسر. لكن تعليق المستقبل كله على جهة واحدة يترك الإنسان في وضع صعب إذا تبدلت أحوالها أو تبدلت حاجتها إليه.

ولهذا أرى أن مراجعة اختياراتنا من وقت إلى آخر ضرورة. ماذا تعلمنا خلال سنوات العمل؟ وما الذي نستطيع تقديمه خارج حدود الوظيفة؟ وهل يمكن أن نبدأ بشيء صغير، نختبره دون أن نحمل أنفسنا وأسرنا ما لا نطيق؟

ليس كل متردد عاجزًا، فقد تكون لديه مسؤوليات تمنعه من المجازفة بدخله. وليس كل مبادر مستعدًا للنجاح. لكن الخوف وحده لا ينبغي أن يحسم القرار. نستشير أهل الخبرة، ونتعلم ما ينقصنا، ونحسب ما نستطيع تحمله، ثم نحاول. وقد تكون المحاولة الأولى محدودة، لكنها تكشف لنا ما لم يكن ظاهرًا ونحن واقفون مكاننا.

وفي تربية الأبناء نحتاج إلى المراجعة نفسها. نريد لهم الخير، لكننا قد نخلط بين مصلحتهم ورغبتنا في أن يشبهونا. نعطيهم خبرتنا، ونناقش

اختياراتهم، ونترك لهم مساحة يجربون فيها ويتحملون المسؤولية، مع بقائنا إلى جوارهم حين يحتاجون إلينا.
وحسن الظن بالله يعيننا على السعي وتجاوز الخوف، ولا يعفينا من التعلم والتخطيط. وقد نبذل جهدنا ولا نصل إلى ما أردناه، فنراجع التجربة ونحاول من جديد. التعثر مؤلم، لكنه لا يجعل كل محاولة خطأ، كما أن نجاح تجربة واحدة لا يضمن نجاح كل من يسلك طريقها.
لسنا قادرين على تغيير كل ظروفنا، لكننا نستطيع أن نسأل أنفسنا بصدق: هل ما زال هذا القيد قائمًا، أم أننا اعتدناه حتى لم نعد نحاول الخروج منه؟ ربما كان الباب مفتوحًا منذ وقت، ونحن لم نقترب منه.

تنويه: مقالات الرأي تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة